العـــتبي

فى هذه الصورة التى نقصد إلى جلائها مثل من الأمثلة التى توضح بعض النواحى الغامضة والتيارات الخفية السارية فى المائة الأولى من قيام الدولة العباسية ، وتبين شيئاً من الألوان التى كانت تسود الحياة الأدبية والعقلية فى هذه الفترة من الزمن . وفى هذه الشخصية التى نرجو أن نتبين — قدر ما يمكن أن يتاح لنا — شيئاً من ملامحها وقسماتها ، طائفة من الخصائص التى تميزها عن معاصريها ، سواء فى تلك الملامح والقسمات ، أم فيما أحاط بها من الأسباب والملابسات . وإذا كان تراثنا الأدبى الذى بقى لنا عن هذه الفترة يضعنا من هذه الشخصية أمام صورة غامضة مبهمة ، لا تكاد العين تستبين منها خاصة واضحة ، أو تتعرف فيها سمة بارزة ، لضآلة ما كتبوه فى ترجمتها من ناحية ، ثم لتشتت ما أثر عنها وذهابه فى ثنايا الكتب المختلفة وتضاعيف ذلك التراث الأدبى المختلط ، من ناحية أخرى ، فسنحاول فى هذا الفصل أن نضم المتفرق ونلم المتشعث ، ونستلهم روح العصر ، ونتعرف بذلك ما عسى أن يجلوها ويبرز بعض خصائصها ويضعها فى مكانها ، ويظهرنا على الصلات التى تربطها بما حولها .

والعتبى عالم راوية شاعر ، ولكنه طراز آخر غير ما ألفنا أن نراه فى رواة ذلك العصر وعلمائه وشعرائه . لم ينشأ نشأتهم ، ولم يخرج من طبقتهم ، ولا تعرض لما تعرضوا له من مشاعر وأحاسيس أحاطتهم بها طبقتهم الاجتماعية التى ينتمون إليها . وإن هذا اللقب الذى يحمله ويعرف به ولا يكاد يعرف بغيره ليشير إلى هذه المفارقة ؛ إذ ينبه إلى ذلك الأصل الذى ينحدر منه ويرجع إليه ، وهو الأسرة الأموية عامة ، وعتبة بن أبى سفيان خاصة . فها هو ذا إذن عالم راوية من طبقة السادة الفاتحين ، لا من طبقة الموالى ، يصطنع العلم ، ويأخذ

الرواة عنه ، ويكتب الكتب فيدفع بها إلى الوراقين ، أو يتلقفونها عنه ليذيعوها ، شان أولئك العلماء من الموالى الذين ليس لهم من نبل الأصل ولا من تقاليد السؤدد ومواضعاته فى ذلك العصر ما يرفعهم عن هذه الصناعة . وها هى ذى ظاهرة من ظواهر التحول الاجتماعى الذى أخذت الجماعة الاسلامية تخضع له ، وقد جعلت بعض نوازعه تتمثل مبكرة فى أبى عبد الرحمن العتبى هذا ، وقد وجدت فيه من الملابسات الخاصة ما أبرز هذه الظاهرة ومكن لها وشق سبيلها لتصبح بعد قليل أبعد مدى وأوسع انتشاراً ، فكان — إلى جانب رجل كمصعب الزبيرى — من أول الذين تحطمت لديهم هذه الناحية من تقاليد السؤدد العربى فى العراق ، وإن كنا — حين نتتبع حياته العلمية واتجاهه الروائى — نراه محكوماً إلى حد غير قليل بجو خاص ، هو جو هذه الأسرة التى خرج منها ، وظل يحمل اسمها . وإذن فلا بد لنا أن نحاول تعرف ذلك الجو ، ومبلغه من التأثير فيه . ويبدو أن العامل الأول فى تكييف ذلك الجو ، ثم فى اتجاه العتبى تلك الوجهة ، يرجع إلى تلك الغير التى عانتها هذه الأسرة فى صلتها بالسلطان . فقد كان عتبة بن أبى سفيان ، وهو — كما قلنا — الجد الأكبر لهذه الأسرة ، أخا الخليفة وردءه ، وأحد الذين بنوا تلك الدولة ومكنوا لها ، وردوا عنها كثيراً من المكايد التى كانت تتربص بها ، والفتن التى كانت تتوثب عليها . وقد كان — كما نستطيع أن نرى ذلك من مواقفه فى مصر وخطبه المأثورة بها — رجلا مهيباً شديد البأس قوى العارضة بيناً حاضر الحجة ، اجتمعت له فى شخصيته الصفات التى تجعله من بناة الدول ، وكذلك كان من أقوى بناة الدولة الأموية ، وإن عاجله الموت فمات سنة ٤٤ مرابطاً بالاسكندرية . وبموته انتهى — فيما يبدو — نصيب هذه الشعبة من السفيانيين فى الدولة ، فلم نعد نرى أحداً منهم يشارك فى أعمالها ، أو يتولى أموالها ، وإن كان فيهم رجل كعمرو ابن عتبة عرف ببعد النظر ورجاحة العقل وشجاعة القلب والاتزان والبعد عن الهوى ، وهى الصفات التى أهلته ليكون زعيما للسفيانيين ، يدافع عنهم ، وينطق بحجتهم ، ويتكلم بلسانهم ، فيما كان بينهم وبين المروانيين الذين صار الأمر إليهم ، وفيما كانت الدولة تنالهم به — ولا سيما فى أيام عبد الملك بن مروان — من تسخط عليهم ، وتنكر لهم ، وانتقاص لحقوقهم . ولكنه اكتفى بهذا القدر فى موقفه من الدولة ، فلم يغامر فى شئ من السياسة ، ولا شارك فى شئ مما كان يدبر ضدها ،

ويراد به إحداث نوع من الانقلاب فيها ، وتهيئة الأمر لبعض هذه الأسر الأموية التى نجيت عنه ؛ فقد كان إلى جانب تلك الصفات التى ذكرناها رجلا مستقيم الخلق صريح المذهب قوى الشعور بحرمة الرحم الماسة .

ولعله كان أول من استوطن بأسرته البصرة ، وقد عاش بها سريا ممدحاً . ولعله لم يكن يتاح لنا أن نعرف إقامته فيها ، وأولية هذه الأسرة بها ، لولا هذه الأبيات التى قالها الفرزدق فى مدحه :

لولا ابن عتبة عمرو ، والرجـاء له ... ما كانت البصرة الحمقاء لى وطنا
أعطانى المال ، حتى قلت : يودعنى ... أو قلت : أودع لى مالا رآه لنا
فجـوده متعب شكرى ، ومنتـه ... وكلما زدت شكراً زادنى منـنا
يرمى بهمتـه أقصى مسـافتها ... ولا يريد على معروفـه ثمنا

- وانتهت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية مقامها ، والعتبيون بالبصرة وعلى رأسهم فى ذلك الوقت عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة ، جد العتبى . وكان على البصرة حينذاك سليمان بن على . وقد شارك فى الخطة التى اختطتها الدولة الجديدة للانتقام من بنى أمية وتتبعهم والتنكيل بهم . فاستطاع عمرو بن معاوية أن يختفى بأهله حيناً من الزمن ، حتى استقرت النفوس وهدأت الثائرة بعض الشئ ، فأظهر نفسه ، وتقدم إلى سليمان بن على ، فقال له : « أصلح الله الأمير ! لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك . فاما قتلتنى غانماً ، وإما رددتنى سالماً » . فقال له : « ومن أنت ؟ ما أعرفك ! » ، فانتسب له . فقال سليمان : « مرحباً بك ! أقعد آمناً غانماً . ما حاجتك ؟ » ، فقال : « إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خفن لخوفنا . ومن خاف خيف عليه » . فدمعت عينا سليمان ، ثم قال : « يابن أخى ! يحقن الله دمك ، ويحفظك فى حرمك . ويوفر عليك مالك . والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت . فكن متوارياً كظاهر ، وآمناً كخائف » . ثم استصدر سليمان بن على من الخليفة أماناً له ولمن كان ثمة من أسرته .

وهكذا نجت هذه الأسرة من تلك العاصفة العاتية التى هبت على الأمويين فى مختلف الجهات ، فاقتلعت معظمهم وطوحت بهم إلى ما وراء هذه الحياة ، واستطاعت أن تستقر آمنة مطمئنة فى هذه المدينة التى اختارتها لنفسها منذ

جيلين مضيا ، وكانت قد رأت فى الاقامة فيها ما يكفل لها الهدوء والبعد عن تلك التيارات والنزعات التى كانت تفسد على الأسرة الحاكمة حياتها فى الشام . ولكنها إذ تحس اليوم روح الأمن و برد الطمأنينة تحس إلى جانب ذلك أنها فقدت مكانها الذى كانت تتبوؤه من قبل ؛ فلم تعد تلك الأسرة السرية التى تربطها بالدولة أوثق الأواصر ، والتى تملك من أحاسيس المجد ومظاهره ما يملؤها عزة ، ويحيطها بمعانى الكبرياء والرفعة ، ويرتفع بها عن اصطناع أساليب الحياة التى يصطنعها عامة الناس . فقد ذهب عنها ذلك كله بذهاب دولة بنى أمية ، وأصبحت لا تملك منه إلا ما بقى لها من ذلك الرباط التاريخى الذى يربطها به . فليس لها إلا أن تتبلغ برواية أخباره ، وتناقل أحاديثه وآثاره .

ولعل الأمر لم يقتصر على ذلك فيما يتعلق بهذه الأسرة . فهى لم تفقد مكانها الاجتماعى فى هذه المدينة فحسب ، بل تغير الجو من حولها كذلك فيما يمس مشاعرها العربية أولا ، ومشاعرها الأموية ثانياً . فلم تعد الدولة عربية ، كما كانت من قبل ، بل أصبحت فارسية فى كيانها وفى اتجاهها وفى هذه الألوان الغالبة عليها . ولم تعد تلك النزعة الشعوبية تتسلل فى خيفة ورقبة واستحياء ، بل أصبحت نزعة قوية عارمة ، تجاهر بالدعوة ، وتفرط فى الخصومة ، وتتقحم على الناس فى شئ غير قليل من الكبرياء والقحة ، غير متحرجة ولا متأثمة . ثم ها هى ذى الدولة القائمة لم تكد تفرغ من حملة المطاردة والتقتيل والتمثيل التى شنتها على الأمويين ، حتى أخذت تنظم حملة أدبية عليهم تتجه بها إلى نفوس الناس وعقولهم ومشاعرهم ، فأخذت توعز بالوسائل المختلفة إلى بعض العلماء والرواة ليكونوا أداتها فى هذه الحملة ، إذ يتناولون خلفاء الأمويين وأمراءهم ، يتعقبونهم ، وينقبون عن أخبارهم ، ويمثلون بتاريخهم ، ثم يولدون الأخبار المنكرة وينسبونها إليهم ، سواء فى ذلك حياتهم الخاصة وحياتهم العامة ، مما لا يزال لدينا منه أطراف مختلفة فى كتب الأدب والمحاضرات تمثل لنا هذا النوع من النشاط . وهكذا جعلت هذه الأسرة تتنفس ذلك الجو البغيض يمضها ويوغر مشاعرها ، ويثير فى نفسها آلم الذكريات . وفى ذلك الجو نشأ صاحبنا أبو عبد الرحمن محمد ابن عبيد الله العتبى .

خرج العتبي إذن من بيئة غير تلك البيئات التي تعودنا أن نرى العلماء والرواة في تلك الفترة من الزمن يخرجون منها ، وفي تلك الملابسات التي خلقت في تلك البيئة جوًّا خاصا بها . وقد تكون هذه الأسرة قد أحست منذ انتقل الأمر من السفيانيين إلى المروانيين ، شيئاً من العزلة . وقد يكون من مظاهر هذا الإحساس هذه الإقامة البعيدة في البصرة في غير حاجة إلى هذا الابعاد من ولاية أو نحوها . ولكن هذا الاحساس بالعزلة قد أوجد لها نوعاً من الاعتداد بالنفس ، ونزع بها — فيما يبدو — إلى استمداد الشعور بالكرامة ، واستبقاء روح العزة من أصول أبعد من الخلافة والملك ، كالذي نلاحظه في بعض ما يروى من حديث عمرو بن عتبة إلى بنيه في شيء من الخصومة وقع بين آل أبي سفيان وبني مروان ، إذ يقول لهم : « إن لقريش درجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالا تخشع لها رقاب الأموال ، وألسناً تكل عنها الشفار المشحوذة ، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة . ولو كانت الدنيا لهم ضاقت عن سعة أحلامهم ، ولو احتفلت ما تزينت إلا بهم . ثم إن ناساً منهم تخلقوا بأخلاق العوام ، فصار لهم رفق باللؤم ، وخرق في الحرص . لو أمكنهم قاسموا الطير أرزاقها . إن خافوا مكروها تعجلوا له الفقر ، وإن عجلت لهم نعمة أخروا عليها الشكر . أولئك أنضاء فكر الفقر ، وعجزة حملة الشكر » .

فعمرو بن عتبة لا يحاول في هذه العبارة — إن صحت نسبتها إليه — أن يثير في ولده الشعور بالكرامة ، بالتحدث عن بني أمية ، بل هو يرجع بهم إلى ذلك الأصل الأبعد ، وهو قريش . ومهما يقع الشك في نسبة هذه الفقرات ، فليس يفوتها — إذ كان راويها العتبي — أنها تصور ذلك النوع من شعور الأسرة منذ حدثت الفرقة بين السفيانيين والمروانيين . فالذي يعنينا في حقيقة الأمر من هذا هو ما يمكن أن يخلص لنا من تصور هذه الأسرة أنها كانت تعيش منذ عهد غير قريب — بالنسبة لعهد العتبي — منقبضة في نفسها وفي مشاعرها الخاصة بها . فلم تكن تعيش في الخارج قدر ما كانت تعيش في ذلك الجو المقصور الذي يضطرب بالأخبار والروايات والأحاديث الخاصة التي تنحدر إليه وتتسلل نحوه عن الآباء والأجداد والأهل والحاشية ، فتجد فيها أنواعاً من الأنس ، في وسط ذلك الشعور بالعزلة .

ومهما يكن من أمر هذا الشعور فقد كان يخالطه من بعض جوانبه —

بطبيعة الحال — الاحساس بمجد الخلافة ، على ما ذكرنا من قبل ، ولا سيما إذ كان الناس ينظرون إليها بهذا الاعتبار ، وإذ كان من الطبيعى أن يتجاوب وإياها إحساس هؤلاء الناس لقاءها . فالعزلة النفسية التى كانت هذه الأسرة تستشعرها إنما كانت إحساساً جزئيا على كل حال ، حتى تغير الأمر ذلك التغير ، وحدث ذلك الانقلاب ، وانتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس ، ثم حدث ما أشرنا إليه من استعلاء النزعة الشعوبية ؛ ومن ذلك الاتجاه إلى تشويه الذكريات الأموية ، ومحق ما عسى أن يكون فيها من مأثرة تؤثر ، أو فضيلة تروى وتذكر . وبذلك نمت هذه العزلة النفسية واستحكمت حلقاتها أو كادت ، وقوى إحساس العتبيين أنهم يحيون فى غير زمانهم ، أو كأنهم لم يعودوا يعيشون إلا فى هذه الذكريات والأخبار التى جعلت تملأ جوهم وتؤنس وحدتهم .

ولسنا ندرى على وجه الدقة متى ولد محمد بن عبيد الله العتبى ، فلم يشر المؤرخون إلى ميلاده أية إشارة ، وكأنما كان ذلك من مظاهر تلك العزلة التى عانتها أسرته التى ولد فيها ، فى إبان استحكام حلقاتها فيما يظهر . وإن كنا نستطيع أن نجد فى مقارنة بعض النصوص والاستنتاج منها ما لعله يدلنا بعض الدلالة على وقت مولده فى شئ من المقاربة . من ذلك ماحكاه المرزبانى فى حديثه عنه ، فى كتابه معجم الشعراء ، أنه بلغ سنًّا عالية ، وما ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخه أنه مات سنه ٢٢٨ . فلنا من هذا أن نفترض القول بأنه ولد قبل منتصف القرن الثانى . فاذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره الخطيب من أنه تلقى عن أبى مخنف لوط بن يحيى ، وقد مات أبو مخنف هذا — كما ينص على ذلك ياقوت — سنة ١٥٧ ، كان لنا أن نفترض سنة ١٤٠ تاريخاً لمولده ، أو قريباً من ذلك .

والأمر فى نشأته كالأمر فى سنة مولده غامض مبهم لم يصلنا عنه شئ ، إلا مايذكره الخطيب حين يجد نفسه مضطرا إلى أن يذكر شيوخه ، فيقول إنهم أبوه وسفيان بن عيينة وأبو مخنف . وقد يكون مما يلفت النظر ويثير الشعور بالغرابة أن يكون سفيان وأبو مخنف شيخيه ، وليس واحد منهما بصريا . فسفيان كوفى الأصل انتقل إلى مكة فصار محدث الحرم ، وأبو مخنف كوفى أيضاً . فما دلالة هذا ؟

والخطيب حين يذكر هؤلاء فانما يذكرهم على أنهم شيوخه فى الحديث ،

فأما شيوخه فى غير الحديث فليس هنالك مايدلنا على أحد منهم ؛ فالتراجم التى وقفنا عليها لا تشير أية إشارة إليهم ، والأخبار المتناثرة المستندة إليه — مما بين أيدينا — لا تكاد تكون فى أسانيدها إشارة إلى شيخ من أصحاب الرواية كان يروى عنه هذه الأخبار وكأنه ليس هنالك إلا أبوه عبيد الله بن عمرو . وإذا صح أنه لم يتلق الأدب عن أحد من هؤلاء العلماء الذين كانت البصرة تزخر بهم كان ذلك أمراً غريباً ، غرابة ما أشرنا إليه من أنه لم يتلق الحديث عن أحد من شيوخ البصرة ، وإنما تلقاه — فيما يظهر — فى بعض رحلاته إلى الحجاز . وكأنه قصد إليه — أى إلى الحديث — كما كان يقصد إليه أبناء الأمراء ، فهو نوع من الترف ، وهو تقليد من التقاليد . ومن ذلك لم يعن بالتخير ؛ فأحد شيخيه وهو سفيان ثقة ، والآخر « كوفى ليس حديثه بشئ » كما يقول ابن معين عن أبى مخنف . فتأويل تلك الغرابة يمكن أن يكون فى هذا ، كما يمكن أن يكون فى تلك العزلة التى استحكمت واشتدت فى ذلك العهد الذى نشأ فيه العتبى . وبذلك كان شيخه الأول — ويكاد يكون شيخه الفرد — أباه عبيد الله بن عمرو ، وكان سيداً أديباً فصيحاً ، كما يصفه ابن النديم .

نشأ محمد بن عبيد الله فى وسط تلك الحالات النفسية المقصورة التى عرضناها ، وجعل عقله وخياله يتفتحان على هذه الأحاديث والآثار التى كانت أسرته تتناقلها ، والذكريات التى كانت تتوارثها : تتعزى بها ، وتأنس إليها . فجعل يتحفظها ويرويها ويملأ قلبه وعقله بها ، على ذلك الوجه ، لا على أنها علم يدرس . وإن كانت لم تلبث حتى صارت فنا من فنون الرواية يرويه الرواة ويستمع إليه الطلاب ويدونه الوراقون ويذيعونه ، حين اتجهت الدعاية إلى الغض من الأمويين وتشويه آثارهم ومحق مآثرهم ، بتأثير النزعة الشعوبية المتوثبة والدولة الجديدة جميعاً ، فأحس العتبى بما ينبغى أن يبذله لقاء ذلك ، فاتجه إلى إذاعة هذه الأخبار والآثار التى كان يحفظ منها قدراً غير قليل . وقد وصلت إلينا طائفة من هذه الأخبار منسوبة إليه ، وهى تتجه فى مجموعها إلى تمجيد بنى أمية ونسبة صنوف مختلفة من الفضل لهم ، سواء فى ذلك خلفاؤهم وأمراؤهم وولاتهم ، كمعاوية ، ويزيد ، وخالد بن يزيد ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد ، وعمرو بن عتبة ، والحجاج ، وعبيد الله بن زياد ، وخالد بن عبد الله

القسرى . وكأنما كان بذلك يحاول أن يصلح ماتفسده الدعاية ، وأن يعدل كثيراً من الصور التى كانت تذيعها عن رجال تلك الدولة الذاهبة . وإذا كانت فتنة الرواية فى تلك الفترة قد طرّقت سبيلا نهجاً لدعاة الشعوبية ورجال الدولة الجديدة ، فاستطاعوا فى غمرتها أن يدسوا دسائسهم ، ويبثوا ضد الأمويين دعايتهم ، فان هذه « الفتنة بالرواية » نفسها قد أتاحت لأبى عبد الرحمن العتبى أن يقاوم تلك الدعاية ، بما كان يذيع من أخبار الأمويين ومآثرهم .

وإذا كان دعاة الشعوبية قد وجدوا فى خلال تلك الثورة الاجتماعية التى صحبت قيام الدولة العباسية كثيراً من الآذان المصغية إليهم والقلوب المائلة نحوهم والمشاعر المشاركة لهم ، فقد كان هنالك من يحس العطف على بنى أمية والرثاء لهم ، ولا سيما فى مدينة كالبصرة كانت العثمانية تحتل فيها مكاناً ظاهراً ، وكانت روح السخط على الدولة الجديدة لا تزال متفشية فيها غالبة عليها . وإذا كانت النزعة الأموية فى ذلك الوقت أمراً محتاجاً إلى الدرس لتبين وجوهها المختلفة ، فليس هناك من شك فى أنها كانت موجودة على نحو ما . وليست أسطورة السفيانى إلا مظهراً من مظاهر تلك النزعة . فقد كان موقف العتبى إذن استجابة أدبية لها ، إلى جانب كونه عاملا من العوامل التى جعلت تغذيها وتشد من جانبها ، حتى أصبحت بعد ذلك بقليل ، وفى أيام الخليفة المأمون ، أمراً واضح الخطورة ، تحسب الدولة حسابه وتخشى جانبه ، وتتخذ التدابير لمواجهته . وإن كنا لا نشك فى أن نشاط العتبى من هذه الناحية كان نشاطاً أدبيا خالصاً فى ذاته ، وأنه لم يتجه به وجهه سياسية ، وإن وجدت السياسة فيه شيئاً تستطيع أن تستغله .

وهكذا نرى أن العتبى كان يمثل بتلك الوجهة التى اتجه إليها فى رواية الأخبار تياراً من التيارات الخفية السارية فى المجتمع الاسلامى لذلك العهد ، والذى لم يلبث أن جهر واستعلن . ولكنه كان يمثله من الناحية الأدبية التى نعنى هنا بملاحظتها وتسجيلها ؛ إذ كانت العناية بالصورة الأدبية الفنية لهذه الأخبار ظاهرة الأثر فيها .

وبعد فقد كان العهد الأموى — كما قلنا — عهداً عربيا يمثل الروح العربية فى جميع ألوانه ، فى رجاله وفى بيانه ، فلا جرم كان تصويره تصويراً للروح

العربية ، وكانت رواية آثاره تعتبر من بعض وجوهها استجابة لهذه الروح ، كما أنها كانت تجد الحافز لها عند العتبى من ناحية الأموية والعربية جميعاً ، وهما فيما يبدو متداخلتان عنده كل التداخل . وإن من الآثار التى كان يعنى بروايتها مالا يتضمن تمجيداً للأمويين ولا إشادة بهم ، وليس يربطها بهذه الناحية إلا أنها من الآثار المنسوبة إلى عهدهم ، ثم هى ليست بعد ذلك إلا ألواناً من حديث الأعراب ، وصوراً من البيان العربى التقليدى الجميل . والواقع أن أول مايلاحظه المستقرى لما وصل إلينا من روايات العتبى فى هذا الباب أنها رواية أدبية فى حملتها وفى اللون الغالب عليها . فالأخبار المجردة قليلة الحظ فيها ، والكثرة الغالبة هى لهذه الآثار الفنية التى تمثل روح اللغة العربية ، على لسان بعض الأمراء الأمويين أو غيرهم ممن هم بسبيل منهم . ولعل من أوفر هؤلاء الأمراء حظا من ذلك حده الأكبر عتبة بن أبى سفيان ؛ فعناية العتبى برواية آثاره عناية ظاهرة ، لا لانه جده الذى ينتسب إليه ويحمل اسمه فحسب بل لقدرته البيانية الرائعة فيما يؤثر عنه من خطب ، كخطبته فى مصر حين اخذت الثورة على بنى أمية تدب فيها ، وكخطبته فى الحجاز سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بفتنة . فالأمر فى مثل هذه الروايات يرجع إلى شعوره الشخصى وشعوره الأموى وشعوره العربى ونزعته البيانية جميعاً .

على أن هنالك إلى جانب هذا النوع من الرواية مجموعة من الآثار التى يعنى العتبى بروايتها ، دون أن تكون أموية ، وإنما هى عربية أعرابية ، لا يربطها بالأموية إلا تلك الصفة العامة التى أشرنا إليها ؛ فهى أقوال من حديث الأعراب ، تختلف فى موضوعاتها ، وفى نوع صياغتها ، وفى طولها وقصرها ، ولكنها تتفق جميعاً فى العبارة الجميلة المحكمة التى تصور روح اللغة العربية تصويراً جيداً ، وهى فى جملتها أقرب إلى الحكم والأمثال وجوامع الكلم ومحكمات الأوصاف ، كقول أعرابى فى صفة رجل شجاع : « نعم حشو الدرع ومقبض السيف ومدره الرمح هو . كان أحلى من العسل إذا لوبن ، وأمر من الصبر إذا خوشن » ، وكقول آخر فى وصف رجل جميل . « فلان إذا نظرت إليه مومسة سقط خمارها ، وإذا رأته العيدان تحركت أوتارها » ، وكقول ثالث فى وصف الصديق : « خير الاخوان من ينيل عرفاً ، أو يدفع ضرا » ، وكقول

غيره فى وصف مشهد طبيعى : « مررت ببلدة ألقى بها الصيِّف بعاعه ، فأظهر غديراً يقصر الطرف عن أرجائه ، وقد نفت الريح القذى عن مائه ، فكأنه سلاسل درع ذات فضول » ، إلى غير ذلك من العبارات الجامعة التى تمثل روح العربية فى التعبير وبناء الجملة وصفات الجمال فيها ، مما نجده متناثراً هنا وهناك فى كتب الأدب العام كالأمالى والعقد وما إليهما .

على أن هناك سؤالا تثيره هذه الفقرات القصيرة المحكمة التى تمثل صورة أو تقدم حكمة ، والتى كان العتبى معنيا بروايتها عن الأعراب ، والتى تقابل نظائرها من صور الأدب الفارسى مما ذاع فى العهد الساسانى ، وعنى بنقله إلى العربية فى أوائل العهد العباسى : أهناك شئ من المعارضة كان يحسه العتبى ومن إليه حين كانوا يعنون برواية هذه الجمل القصيرة الجامعة ليضعوها بازاء ذلك النوع من الأدب الفارسى ، حتى لا يذهب الظن بالناس إلى أن مثل ذلك الفن لا عهد للعربية به ؟ إن روح ذلك العصر تجعلنا نرجح ذلك الفرض فى الاجابة على ذلك السؤال . ومثل هذا يمكن أن يقال أيضاً عما يرويه العتبى مما يصور النسك عند الأعراب ؛ فقد ذهب فى الناس أن النسك فارسى ، إذ كان أكثر النساك فى ذلك العهد فرساً ، ومن ذلك نراه حريصاً على النص فيما سمعه من ذلك القبيل أنه سمعه من أعرابى .

وبعد فهذا هو العتبى الراوية ، وتلك هى وجهته فى الرواية ، وذلك هو الأصل فى تلك الوجهة . وقد رأينا مكانه من هذه الوجوه المختلفة التى كان يتخذها النشاط الأدبى فى عصره ، وصلة ذلك بالنزعات السياسية السارية فيه . ولعلنا نستطيع أن نتعرف فيما قدمنا أثره فى إمداد النثر العربى الفنى وتوجيهه .

وليس من غرضنا فى هذا الفصل أن نستقصى النواحى المختلفة لأبى عبد الرحمن العتبى . ولكنا لا نستطيع أن نغفل القول فى المذهب الذى كان يصطنعه من مذاهب الحياة العقلية السائدة فى ذلك الوقت . فقد كان الرجل إلى جانب تلك الثقافة العربية يأخذ نفسه ببعض فنون المعرفة الرفيعة، ويحاول أن يسبغ على نفسه بعض ألوان الحياة العقلية الممتازة ، وهى التى كانت تتمثل — أكثر ما تتمثل — فى هذه الثقافة اليونانية التى أخذت الطبقة المترفة تراها مظهراً من مظاهر الترف ، فهى حريصة عليها حرصها على هذه المظاهر . وكذلك كان العتبى . ويشير الجاحظ فى مقدمة الحيوان إلى الصلة

التى كانت بينه وبين رجل كمحمد بن الجهم ، من أصحاب تلك الثقافة — وقد أتيح لنا من قبل أن نتحدث عنه ونعرف بعض الشئ به[1] — وإلى أن تلك الصلة كانت تقوم بين ماتقوم عليه على التماس ألوان هذه الثقافة وآثارها.

وقد كانت هذه الثقافة اليونانية تسلك فى ذلك الوقت سبيلين : سبيل المعتزلة ، وسبيل الأطباء . وكانت السبيل الأولى سبيل رجال الدين ،والثانية سبيل الرجال المدنيين ، ومن هؤلاء الأخيرين كان محمد بن الجهم ، وكان — فيما يصفه الجاحظ به — من فلاسفة الأطباء . وكذلك نستطيع القول بأن اتجاه العتبى إلى هذه الثقافة لم يكن اتجاهاً دينيا اعتزاليا ، وإنما كان اتجاها مدنياً فلسفيا ، وإن كنا لا ندرى فى حقيقة الأمر إلى أى مدى بلغ منها .

على أن الجاحظ يصوره لنا — فى موضع آخر من كتاب الحيوان — صورة طريفة يحسن بنا أن نقف عندها وننظر فيها .فهو يعرضه فى هيئة الرجل الذى يحرص أشد الحرص وأبلغه على دقة العبارة وتحرير المراد والتحرج فى ذلك إلى أبعد مدى . ولكنه يدقق فى غير موضع تدقيق ، ويتحرج دون مايدعو إلى التحرج ، ويبلغ من ذلك مبلغاً أدنى إلى السخف أو هو السخف نفسه . فهى صورة عابثة ساخرة تصور فن الجاحظ من ناحية ، وتبين من ناحية أخرى كيف كان ينظر إلى هذا الصنف من العلماء ؛ ولكنا مع ذلك لا نعدم أن نرى فيها أثر اتجاه الرجل للثقافة اليونانية فى بعض مظاهر سلوكه فى التفكير أو التعبير . قال :

« وكان العتبى ربما قال : « فقال لى المأمون كذا وكذا حين صار النجم على قمة الرأس ، أو حين جازنى شيئاً ، أو قبل أن يوازى هامتى . هكذا هو عندى ، وفى أغلب ظنى ، وأكره أن أجزم على شئ . وهو كما قلت إن شاء الله تعالى ، وقريباً مما نقلت » . فيتوقف فى الوقت الذى ليس من الحديث فى شئ . وذلك الحديث إن كان مع طلوع الشمس لم يزده ذلك خيراً ، وإن كان مع غروبها لم ينقصه ذلك شيئاً . هذا ولعل الحديث فى نفسه لم يكن قط ، ولم يصل هو فى تلك الليلة البتة . وهو مع ذلك زعم أنه دخل على أصحاب الكهف فعرف عددهم ، وكانت عليهم ثياب سبتية ، وكلبهم ممعط الجلد . وقد

---

(١) « فصول لم تنشر من آثار الجاحظ » الكاتب المصرى عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا . »

فاذا نحن جردنا هذه الصورة من السخرية والمبالغة بقى لنا أن العتبى كان رجلا متنطساً متكلفاً فى حياته . ولعل ذلك كان أثراً من آثار البيئة المقصورة التى خرج منها وعاش فيها ، ووجهته تلك الوجهة التى رأيناها .

ط الحاجرى